كتاب رياضة النفس
وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

بيان فضيلة حُسن الخُلق ومذمة سوء الخلق:

قال تعالى لنبيه وحبيبه مثنيًا عليه ومظهرًا نعمته لديه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن [رواه مسلم]. وقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [السلسلة الصحيحة ٨٠٩]، وقال ﷺ: «**أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق**» [السلسلة الصحيحة ٨٧٦]. وقال رجل لرسوله ﷺ: أوصني، فقال ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**» قال: زدني، قال ﷺ: «**أتبع الحسنة السيئة تمحها**» قال: زدني، قال ﷺ: «**خالق الناس بخلق حسن**» [صحيح الجامع ٩٧]، وقيل له ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «**لا خير فيها هي من أهل النار**» [رواه أحمد بسندٍ صحيح]، وقال أيضًا ﷺ: «**سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل**» [السلسلة الصحيحة ٩٠٦]، وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا [أخرجه الخرائطي وحسنه العراقي]، وعن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي**» [صحيح الجامع ١٣٠٧]، وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي ﷺ يقولون: ما خير ما أعطي العبد؟ قال ﷺ: «**حسن الخلق**»، وقال ﷺ: «**إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**» [الصحيحة ٧٩٢]، وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه، وكرم ضريبته**» [السلسلة الصحيحة ٥٢٢]،

obeikandl.com

وقال عبد الرحمن بن سمرة: كنا عند النبي ﷺ فقال: «**إني رأيت البارحة عجبًا رأيت رجلًا من أمتي جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى**» [ضعيف السند ولكن معناه حسن، وقد مال ابن القيم إلى تحسينه]، وروي أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر رضي الله عنه: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب**» فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**إيهًا يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك**» [متفق عليه].

الآثار:

وقال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت، أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال، قال: فإذا كانت ثلاثًا؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمسًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستًا؟ قال: يابني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ولله ولي ومن الشيطان برئ، وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه. وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد وربما بلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد، وقال يحيى بن معاذ: في سعة الخلق كنوز الأرزاق. وقال وهب بن منبه: مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا تُرقَّع ولا تعاد طينًا. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق. وصحب ابن المبارك رجلًا سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه، فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته

رحمةً لـه، فارقته وخلقه معه لم يفارقه، وقال الجنيد: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات. وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بَيَّن الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، قيل: فما الحسب؟ قال: أحسنكم خلقًا أفضلكم حسبًا. وقال لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق. وقال عطاء: ما ارتفع أحدٌ إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقرب الخلق إلى الله عَزَّوَجَلَّ السالكون آثاره بحسن الخلق.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق:

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته إنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كلُّ واحدٍ من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرًا في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب، وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى. وقال الواسطي: هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى. وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى واحتمال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريبًا وفيما بينهم غريبًا. وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء. وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الناس. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال،والتوسعة على العيال. وقال الحسين بن

منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى. فهذا وأمثاله كثير، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطًا بجميع الثمرات أيضًا. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة.

فنقول: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معًا، يقال: فلان حسن الخُلُق والخَلق، أي حسن الباطن والظاهر- فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر. ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروّية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا. وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال: خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال: خلقه السخاء والحلم.

فهاهنا أربعة أمور: أحدها: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما. والثالث: المعرفة بهما. والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين: إما الحسن وإما القبيح.

obeikandl.com

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادرًا على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذًا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقًا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها ليتم حسن الخلق. فإذا استويت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة. والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وأما قوة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وابنساطها على حد ما تقيضه الحكمة؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورًا، وإن مالت عن الضعف والنقصان تسمى جبنًا وخورًا. وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهًا، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودًا.

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثًا وجربزة، ويسمى تفريطها بلهًا، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذًا أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال قوة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء. ومن تفريطها: يصدر البله والغمارة والحمق والجنون ـ وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل، فقد يكون الإنسان غمرًا في شيء دون شيء. والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدًا.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهور، فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب، وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكًا مطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأول قريب من المَلَك المقرب فينبغي أن يقتدى به ويتقرب إليه، فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة:

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير. واستدل فيه بأمرين:

أحدهما- أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلًا، ولا الطويل يقدر

أن يجعل نفسه قصيرًا، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثاني. أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول: لوكانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا يدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلًا وخارجًا، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله. وإلى ما وجد وجودًا ناقصًا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحًا أصلًا ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية لا يبقى لهما أثرٌ لم نقدر عليه أصلًا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى، نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان:

أحدهما. قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، إذ الصبي في مبدأ الفطر تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثاني. أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنًا ومرضيًا والناس فيه على أربع مراتب:

الأولى- وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليًا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضًا باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جدًا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان.

والثانية- أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادًا لشهوته وإعراضًا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولًا من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض له بجد وتشمير وحزم.

والثالثة- أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

والرابعة- أن يكون مع نشئته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول

هو من هؤلاء جاهل فقط، والثاني جاهل وضال، والثالث جاهل وضال وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به: وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حيًا فلا تقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة هو قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعًا. وبالجملة أن يكون في نفسه قويًا ومع قوته منقادًا للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لم ينفكوا عن ذلك، إذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر**» [رواه مسلم]، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقًا، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخرجه غضبه عن الحق. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما وهذا ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها،

والـذي يـدل عـلى أن المطلوب هو الوسـط في الأخـلاق دون الطرفين أن السـخاء خلق محمـود شرعًا، وهو وسـط بـين طريفي التبذير والتقتـير. وقد أثنى الله تعـالى عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩]، وكذلـك المطلوب في شـهوة الطعام الاعتدال دون الـشره والجمود. قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال في الغضب: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال ﷺ: «**خير الأمور أوساطها**» [سنده ضعيف]، وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء:٨٩]، والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضًا من عوارض الدنيا، وشرط القلـب أن يكـون سـليمًا منهما أي لا يكون ملتفتًا إلى المـال ولا يكون حريصًا على إنفاقـه ولا على إمسـاكه، فإن الحريص عـلى الإنفاق مصروف القلـب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمسـاك مصروف القلب إلى الإمسـاك، فكان كـمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعًا، وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين، وأبعد عن الطرفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير، والشجاعة بين الجبن والتهور، والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. نعم يجب على الشـيخ المرشـد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسًـا، ويذم إمسـاك المـال رأسًـا، ولا يرخص لـه في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنـى شيء اتخذ ذلك عذرًا في اسـتبقاء بخلـه وغضبه، وظن أنه القدر المرخص فيه. فـإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سـورته بحيث يعود إلى الاعتـدال، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى تيسر له القدر المقصود. فلا يكشـف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

بيان السبب الذي ينال به حسن الخلق على الجملة:

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضًا. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كُفي سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالمًا بغير تعليم ومؤدَّبًا بغير تأديب.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلًا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفًا مجاهدًا نفسه في ذلك حتى يصير طبعًا له ويتيسر عليه فيصير به جوادًا، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقًا له وطبعًا فيتيسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعًا تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذًا، فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع. ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» [صحيح الجامع ٣١٢٤]، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع، ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ

الطاعـة واسـتكراه المعصية في زمان دون زمان، بـل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملـة العمـر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسـخ وأكمل، ولذلك كره الأنبياء والأوليـاء المـوت، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، كلما كانـت العبادات أكثر بطول العمر كان الثـواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسـخ، وإنما المقصود العبادات تأثيرهـا في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطـع عن النفس حب الدنيا ويرسـخ فيها حب الله تعالى فـلا يكون شيء أحب إليه مـن لقاء الله تعالى عَزَّوَجَلَّ، فلا يسـتعمل جميـع ماله إلا على الوجه الـذي يوصله إليه وكذا غضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزونًا بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحًا به مسـتلذًا له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين، ومصير العبادات لذيذة فـإن العـادة تقتـضي في النفس عجائب أغرب مـن ذلك فإنا قد نرى الملـوك والمنعمين في أحـزان دائمـة، ونـرى المقامر المفلس يغلب عليـه من الفرح واللذة بقـماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسًا، ومـع ذلـك فهـو يحبه ويلتـذ به، وذلك لطـول ألفه له وصرف نفسـه إليه مـدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشـمس قائمًا على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السـماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بـما يلقـاه من الضرب والقطع والصبر على السـياط، وعلى أن يتقـدم به للصلب وهو مع ذلـك متبجح بنفسـه وبقوتـه في الصبر على ذلك، حتـى يرى ذلك فخرًا لنفسـه، ويقطع الواحـد منهـم إربًا إربًا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطـاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحًا بما يعتقده كمالًا وشـجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسـبب افتخاره، فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح، فكيف لا تسـتلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هـذه الأمور الشـنيعة خارج عن الطبـع يضاهي الميل إلى أكل الطـين، فقد يغلب على

بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى، فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينًا له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذًا قد عرفت بهذا قطعًا أن هذه الأخلاق الجميلةيمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً لتصير طبعًا انتهاءً، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح -أعنى النفس والبدن- فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجرى على الجوارح، فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية -حتى يصير كاتبًا بالطبع- فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإنّ فِعْل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفًا، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعًا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفًا، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنًا، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع. وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخيًا عفيف النفس حليمًا متواضعًا، فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفًا حتى يصير ذلك طبعًا له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من

نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم. وهو معنى قولنا: إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلًا قليلًا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسًا فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئًا فشيئًا على التدريج -مثل نمو البدن وارتفاع القامة- فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تاثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة. فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية، وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالى يسوف نفسه يومًا فيومًا إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيدًا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها. وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس:٩]، ولذلك قال علي رضي الله عنه: إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعًا. فمن تظاهرت في حقه

الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلمًا فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلًا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها، فهو في غاية البعد من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكلٍ درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٣٣].

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالًا، فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلًا صحيح الفطرة، وإنما ابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه -أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل- وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملًا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم، وكما أن البدن إن كان صحيحًا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضًا فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاءها، وإن كانت عديمةالكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فالبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج

مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفًا. وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداوة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد.

واعلم أن الطريق الكلي في معالجة القلوب سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازِعَات: ٤٠-٤١]، والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارًا، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم، فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه -كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة- وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة:

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلًا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار، وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]، ففي كل عضو فائدة. وفائدة القلب الحكمة والمعرفة، وعلامة المعرفة بالله أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات، كما قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة. فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه. وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يُلتفت إلى علاجه. فلهذا صار الداء عضالًا والمرض مزمنًا واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات. فهذه علامات أصول الأمراض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما علاجه ببذل الماء وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرًا فيكون التبذير أيضًا داء، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضًا داء، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة، وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين، وإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار الإنفاق على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير

الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك، فقد أتى الله سليمًا عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليمًا عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم -أعنى الوسط- حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقًا بالجانب الذي مال إليه. ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار، وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢]، أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه، ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

وقد روى أن بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام قال: قد قلت: يا رسول الله، شيبتني هود، فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]، فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها، فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كلُّ

عبدٍ صفاته وأخلاقه، وليعددها ويشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه:

اعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول- أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده.

الثاني- أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي، وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما، وكان يسأل حذيفة ويقول له: أنت صاحب سر رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنافقين، فهل سماني رسول الله فيمن سمى؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

فكل من كان أوفر عقلًا وأعلى منصبًا كان أقل إعجابًا وأعظم اتهامًا لنفسه، إلا أن هذا أيضًا قد عز فقلّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد

فلا يزيد على قدر الواجب، فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبًا، أو عن مداهن يُخفي عنك بعض عيوبك.

فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحًا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أنّ تحت ثوبنا عقربًا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يومًا فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدًا وآلافًا من السنين، ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا يعبونا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله.

الطريق الثالث- أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدى المساوئا. ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو من الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساوئه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع- أن يخالط الناس فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن

أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبًا، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجاهل شينًا فاجتنبته، وهذا كله حيل من فقد شيخًا عارفًا ذكيًا بصيرًا بعيوب النفس مشفقًا ناصحًا في الدين فارغًا من تهذيب نفسه مشتغلًا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحًا لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات:

قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وقال: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣].

قيل: نزع منها محبة الشهوات، ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داود، حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة. وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله** عَزَّوَجَلَّ» [رواه الترمذي وصححه الألباني]، وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نفسي مرة لي ومرة عليَّ، وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبسين، يا نفس ألا تستحين! وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة عن الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن

قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى: البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام، حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالملك المتنزه في البستان. وقال أيضًا: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حب شهواتها؛ محصورًا في سجن هواها، مقهورًا مغلولًا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم. وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات. وقال وهيب بن الورد: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل. وقال عليّ: من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات في الدنيا. وسُئل الجنيد متى يصير داء النفس دواؤها؟ فقال: إذا خالفت النفس هواها.

فإذًا لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بجميع المباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه من الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات، لأن الذي يشتهى به الحلال هو بعينه الذي يُشتهى به

الحرام، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام، فإن لم يعوّدها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشرًا وبطرًا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]. وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة.

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن [أي على التقصير في طاعة الله] فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر. فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها - حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب، فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عَزَّوَجَلَّ والاشتغال بطاعته. وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب؛ فإنه يحبس أولًا في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفًا إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه، فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة [أي لا تكثر من مخالطة الناس إلاّ لتعلّم

أو تعليم] أولًا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانيًا في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عَزَّوَجَلَّ عوضًا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية، كالصبي يفطم عن الثدى بالدنيا وسائر الشهوات، وهو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلًا عن اللبن، ولكنه إذا منع اللبن رأسًا يومًا فيومًا وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفًا، ثم يصير له طبعًا، فلو ردَّ بعد ذلك إلى الثدى لم يرجع إليه، فيهجر الثدى ويعاف اللبن ويألف الطعام، فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت، وقد قيل للرسول أحبب ما أحببت فإنك مفارقة. فإذا علم أنه من أحب شيئًا يلزمه فراقه ويشقى لامحالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه، وكل ذلك يتم بالصبر أولًا أيامًا قلائل، فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة. وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرًا ليتنعم به سنة أو دهرًا. وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا، فلابد من الصبر والمجاهدة، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قاله عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بيان علامات حسن الخلق:

ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قولـه: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السـورة. فمن أشـكل عليه حاله فليعرض نفسـه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشـتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسـه**» [متفق عليه]، وقال عليه السلام: «**من كان يؤمـن بالله واليوم الآخـر فليكرم ضيفه**» [متفق عليـه]، وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بـالله واليـوم الآخر فليكرم جـاره**» [متفق عليـه]، وقال: «**من كان يؤمن بـالله واليوم الآخر فليقـل خـيرًا أو ليصمت**» [متفق عليه] وذكـر أن صفات المؤمنين هي حسـن الخلق، فقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسـنهم أخلاقًا**»، وقال: «**من سرته حسـنته وساءته فهو مؤمن**» [رواه أحمد وصححه الألباني]، وقال: «**لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه**» [رواه ابن المبارك مرسلًا لكن معناه صحيح]، وقال ﷺ: «**إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله** عز وجل **فـلا يحـل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهـه**». [قلتُ: صح بلفظ: المجالس بالأمانة].

وجمـع بعضهم علامات حسـن الخلـق فقال: هو أن يكون كثـير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسـان، قليل الكلام كثير العمـل، قليل الزلل قليل الفضول، برًا وصولًا وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًا حليمًا رفيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نمامًا ولا مغتابًـا ولا عجـولًا ولا حقودًا ولا بخيلًا ولا حسـودًا، بشاشًـا هشاشًـا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق.

وأولى ما يمتحن به حسـن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شـكا من سـوء خلق غيره دل ذلك على سـوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى، فقد روي أن

رسول الله ﷺ كان يومًا يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبًا شديدًا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس رضي الله عنه: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدّة جذبه، فقال: يا محمد، هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر بإعطائه [متفق عليه]، ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [رواه ابن حبان وبمعناه في الصحيحين]، قيل: إنّ هذا يوم أُحُد فلذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ويحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يومًا إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا: ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم! فنزل الجندي عن فرسه وقبَّل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لِمَ قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت، بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة، قيل: كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ودُعي أبو عثمان الحيرى إلى دعوة - وكان الداعي قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له: ليس لي وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيًا فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك! فقال: إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دُعي أجاب وإذا زجر انزجر.

وروى عنه أيضًا أنه اجتاز يومًا في سكة فطرحت عليه إجانة [وهو الوعاء الذي يغسل فيه الثياب] رماد، فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئًا، فقيل: ألا زبرتهم؟ فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروى أنّ عليّ بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد -إذ كانت أمه سوداء- وكان بنيسابور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامى، فدخل يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى في بعض حوائجه، فتقدّم رجل رستاقى [الساكن بطرف الإقليم] إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى عليّ بن موسى الرضا، فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إليَّ الماء فقام عليّ بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع عليّ بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج عليّ بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب. قال: لا ينبغي له أن يهرب. إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمةٍ سوداء.

ورُوي أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسى يستعمله في الخياطة، فكان إذا خاط له شيئًا حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردّها عليه، فاتفق يومًا أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسى فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهمًا زائفًا، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت، هذا المجوسى يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغرّ بها مسلمًا.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة،

واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم، قيل، وما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقيل: إن أويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخواتاه إن كان ولابد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة، وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعا غلامًا فلم يجبه فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعًا فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة، وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء، فقيل له: لِمَ تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق، فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه، فمن لم يصادف في نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه

فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشؤهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم:

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوّده الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه هوو كل معلم له ومؤدب؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخر أولى؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمر فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر

إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم؛ ولا يلطخ يده ولا ثوبه، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتمًا، ويقبِّح عنده كثرة الأكل، بأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل.

وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أيّ طعام كان، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوبًا من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشؤه خرج في الأغلب ردئ الأخلاق كذابًا حسودًا سروقًا نمامًا لحوحًا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرءان وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويُحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويُحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظُرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغي أن يعاتب سرًا ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع

الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانًا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن كثرة النوم نهارًا فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلًا، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية، فإنه لا يخيفه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك تعود فعل القبيح، ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئًا بدا له، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وبالجملة؛ يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضًا، وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق في مجلسه ولا يتخمط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره. ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين رأسًا -صادقًا كان أو كاذبًا- حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يبتدئ بالكلام، ويعوّد أن لا يتكلم إلا جوابًا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنًا، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء، وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن

يـؤذن لـه بعد الانصراف من الكتَّـاب أن يلعب لعبًا جميلًا يسـتريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا. وينبغي أن يعلـم طاعـة والديه ومعلمه ومؤدبه، وكل من هو أكبر منه سـنًا مـن قرين وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سـن التمييز، فينبغـي أن لا يسـامح في تـرك الطهارة والصـلاة ويؤمر بالصوم في بعـض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخـوّف مـن السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكـذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشـوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هـذه الأمور، فيذكر لـه أن الأطعمة أدوية، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسـان بها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأنَّ الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممـرّ لا دار مقـرّ، وأن الآخرة دار مقرّ لا دار ممرّ، وأن الموت منتظر في كل سـاعة، وأن الكيِّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عن الله تعالى ويتسـع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشـؤ صالحًا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعًا مؤثرًا ناجعًا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر.

قـال ﷺ: «**كل مولـود يولد عـلى الفطرة وإنما أبواه يهودانـه أو ينصرانه أو يمجسانه**» [متفق عليه].

قال سـهل بن عبد الله التسـتري: كنت وأنا ابن ثلاث سـنين أقوم بالليل فانظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك، الله معي الله ناظر إليَّ الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلـك ثـم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته،

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل من كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية.

obeikandl.com

كسر الشهوتين

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع:

قيل مكتوب في التوراة: إن الله ليبغض الحبر السمين. لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصًا بالحبر، ولأجل ذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله تعالى يبغض القارئ السمين، وفي خبر مرسل: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش». وفي الخبر: «إن الأكل على الشبع يورث البرص»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في في سبعة أمعاء**»، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته. وذكر المعي كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعي. وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن.

ورُوي: أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «**أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا في الدنيا**» [حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب].

وأما الآثار: فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات. وقال شقيق البلخي: العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وكان فتح الموصلي إذا اشتدّ مرضه وجوعه يقول: إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك، فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليَّ؟ وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع: يا أبا عبد الله، طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي: يا أبا يحيى، طوبى لمن أمسى وأصبح جائعًا وهو عن الله راض. وفي التوراة: اتق الله، وإذا شبعت فاذكر الجياع. وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام

ليلة إلى الصبح، وقال أيضًا: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه. وقال سهل: لم ير الأكياس شيئًا أنفع من الجوع للدين والدنيا، وقال: لا أعلم شيئًا أضر على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع، وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال. وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع، وقال: من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس. وقال: إقبال الله عَزَّوَجَلَّ على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله. وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإحمال الذكر وترك العز. وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها. وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار، إنما حسن صوته لخفته ورقته لأنه أجوف غير ممتلئ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: ثلاثة يحبهم الله تعالى: رجل قليل النوم، قليل الأكل، قليل الراحة.

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع:

الفائدة الأولى- صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمى القلب عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطئ الفهم والإدراك. وقال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي.

ويقال: مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة كالمطر ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال يزيد: الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة.

الفائدة الثانية- رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذ به ولا

يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابًا من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه، وقال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون إليَّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني. وقال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة. وقال أبو سليمان: إذا جاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمي وغلظ.

الفائدة الثالثة- الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائمًا مشاهدًا نفسه بعين الذل والعجز ومولاها بعين العز والقدرة والقهر.

الفائدة الرابعة- أن لا ينسى بلاء الله وعذابه؛ ولا ينسى أهل البلاء، فإنّ الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه، ورُوي أنه قيل ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عَزَّوَجَلَّ. والشبعان في غفلة عن ألم الجائع.

الفائدة الخامسة- وهي من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادّة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة، وإنما السعادة كلها في أن

يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس. وقال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشبع».

الفائدة السادسة- دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيرًا، ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا فتخسروا كثيرًا. وأجمع رأي سبعين صدّيقًا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها. ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة.

الفائدة السابعة- تيسير المواظبة على العبادة، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ويحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السري: رأيت مع علي الجرجاني سويقًا يستف منه فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة!! فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها، فينبغي أن يستوفى منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته. ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم

ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة- يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات كما أنّ الشبعان قلما يخلو عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي ﷺ: «**ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس**»، فتعجب منه وقال: ما سمعت كلامًا في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم، ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة- خفة المؤونة، فإنّ من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريمًا ملازمًا له آخذًا بمخنقه في كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل. وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي. وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من

نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي. وكان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول: إنها غالية، فيقول: أرخصوها بالترك. وقال سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال، إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسبًا فلا يسلم من الآفات، وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه.

وبالجملة: سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج: شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب بالنار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة.

الفائدة العاشرة- أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته كما ورد به الخبر، فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدّق به كان حزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدّق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع. وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، قال: عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم، فقال لها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فقالت: لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت: لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلومًا لنفسه جهولًا بأمر ربه، فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافًا فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدوّ والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكئ على شماله

ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام ائتني بشيء أهضم به طعامي، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذين أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر بها الأجر، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه. ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «**لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك**»، أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك. وعن الحسن قال: والله لقد أدركت أقوامًا كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخر وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم أن على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف: الأول أن لا ياكل إلا حلالًا، فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء في أمواج البحار.

أمّا تقليل الطعام، فسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثر وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلًا قليلًا، وذلك بأن ينقص قليلًا قليلًا من طعامه المعتاد. [حتى إذا استقامت نفسه على ذلك حينًا أنقص قدرًا آخر وداوم على ذلك حتى إذا استقامت نفسه على ذلك حينًا أنقص قدرًا زائدًا حتى يصل إلى الحد الذي لا يضعفه عن العبادة].

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه:

اعلم أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط، إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومئ إلى

أنّ الإفراط فيه مطلوب وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يومئ عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان. والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثًا والشرع مانعًا فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية؛ فإنه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضًا ما يدل على إساءته، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه، فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلًا، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضًا يشغل القلب ويمنع منها. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال.

ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها. فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت ماتت على الوسط لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة، فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص، فأشبه احواله بهم البعد، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط، فصار الوسط مطلوبًا في جميع هذه الأحوال المتقابلة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته.

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام:

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات:

إحداهما - أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها، ولكن لا يريد أن يعرف الناس بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان، فيكون مستحقًا لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقين. ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥]، لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر، فكان ستره لكفره كفرًا آخر لأنه استخف بنظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين، والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء. بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطًا لمنزلته من قلوب الخلق.

فنهاية الزهد: الزهد في الزهد بإظهار ضدّه وهذا عمل الصديقين. فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين. وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرتين: مرة بشربه، ومرة برميه؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وهذا أيضًا طريق من يُعطى جهرًا فيأخذ ويرد سرًا ليكسر نفسه بالذل جهرًا وبالفقر سرًا.

الآفة الثانية - أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه، وتلك هي الشهوة الخفية، فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له. وبالجملة؛ من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيرًا من شهوة الطعام والله ولي التوفيق.

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين:

إحداهما- أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة، فإن الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد، والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية- بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها، ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦]، معناه شدة الغلمة، وكان ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وسمعي ومني**».

وأعظم الشهوات شهوة النساء. وهذه الشهوة أيضًا لها إفراط وتفريط واعتدال، فالإفراط: ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجواري، فيحرم من سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين:

أحدهما- أن يتناولوا ما يقوِّي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع -كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة لتعظيم شهوة الطعام- وما مثال ذلك إلا كمن ابتلي بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

والأمر الثاني- أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع

بإراقة شهوة الوقاع. وهي أقبح الشهوات وأجدرها أن يُستحيى منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به؟ وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلًا إلى ذل وعبودية إلى عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعًا لا ليكون خادمًا للشهوة ومحتالًا لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهومرض قلب فارغ لا هم له، وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه، فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج، فإن هذه الأمور قد تستولي على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة.

ومثال من يكسر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح.

فإذًا إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جدًا. وتفريطها: بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة، وهو أيضًا مذموم. وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح.

آفات اللسان

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت:

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال ﷺ: «**من صمت نجا**» [أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٥٣٦]. وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني في الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» قال: قلت: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه [انظر صحيح الجامع برقم: ٤٣٩٥]، وقال عقبة ابن عامر: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**» [انظر السلسلة الصحيحة برقم: ٨٩٠]، وقال سهل بن سعد الساعدي: قال رسول الله ﷺ: «**من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**» [رواه البخاري]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: «**الأجوفان: الفم والفرج**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]، فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه؛ فقد قال معاذ بن جبل: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؛ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟**» [أخرجه الترمذي وصححه الألباني]. وقال أنس بن مالك: قال ﷺ: «**لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه**» [رواه ابن أبي الدنيا].

وعن سعيد ابن جبير مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفِّر اللسان أي تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]. ورُوي أن عمر بن

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى أبا بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يمسك لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: «**ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته**» [الجزء المرفوع منه أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٥٣٥]. وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرًا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، أهذا شيء، تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**» [انظر الصحيحة برقم: ٥٣٤]. ورُوي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله، أوصني، قال: «**اعبد الله كأنك تراه وعُدَّ نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله**»، وأشار بيده إلى لسانه [أورده في السلسلة الصحيحة برقم: ١٤٧٥].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**» [متفق عليه]، وقال الحسن: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «**رحم الله عبدًا تكلم فغنم أو سكت فسلم**» [الصحيحة برقم: ٨٥٣]، وقيل لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: دلنا على عمل ندخل به الجنة قال: لا تنطقوا أبدًا، قالوا: لا نستطيع ذلك، فقال: فلا تنطقوا إلا بخير. وقال سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «**أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير**» [رواه ابن أبي الدنيا بإسنادٍ حسن]، وقال ﷺ: «**اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان**» [رواه ابن حبان]، وقال الحسن البصري: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»، وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، وجزء

في الفرار من الناس. وقال عمر بن الخطاب: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به».

الآثار: كان أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاوس. لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه حافظًا للسانه مقبلًا على شأنه. وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحتفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك: ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت. وقيل: أقام المنصور بن المعتمر لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسًا وقلمًا، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسات من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات. فهذه آفات كثيرة وهي لا تثقل على اللسان ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ويكفه عما لا يجب ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخر. فقد قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم نفع محض وقسم هو ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلابدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجًا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرًا. ومن عرف دقائق آفات اللسان -على ما سنذكره- علم قطعًا أن ما ذكره ﷺ هو فصل الخطاب حيث قال: «**من صمت نجا**»، فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعًا وجوامع الكلم، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلًا، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب، فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة:

الآفة الأولى- الكلام فيما لا يعينك:

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرنا من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلًا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرًا لك فكم من كلمة تبني بها قصرًا في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزًا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرًا خسرانًا مبينًا. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرًا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرًا، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوبًا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله. ولهذا قال النبي ﷺ: «**من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لهنّ أحب إليَّ من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيها يعنيك حتى تجد له موضعًا فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليمًا ولا سفيهًا فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه بما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاختراع. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تتعرض لم لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين،

ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكتَّ عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكتَّ عنها لم تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الاجتهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك -وأنّى تسلم من الآفات التي ذكرناها- ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضًا بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات، فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلًا فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهرًا لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذبًا، وإن سكت كان مستحقرًا لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويُستحيى منه. وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنسانًا في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه، وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول: لا أدري، فيجيب عن غير بصيرة.

ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذا الأجناس، فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر. وإنما مثال ما لا يعني ما رُوي أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يسرد درعًا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال. وقيل: إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال، فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعني وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه.

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسؤول عن كل كلمات، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين، هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدًا.

الآفة الثانية- فضول الكلام:

وهو أيضًا مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول -أي فضل عن الحاجة- وهو أيضًا مذموم -لما سبق- وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء ابن أبي رباح: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسُنَّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر،

أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لابد لك منها، أتنكرون أنّ عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وعن بعض الصحابة قال: إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إليّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولًا. وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم اخزه وما أشبه ذلك.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال ﷺ: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله**» [رواه البيهقي حسنه ابن عبد البر وضعفه الألباني ولكن معناه صحيح بلا شك]. فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان، وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلًا، وأنت أطولنا علينا طولًا، وأنت الجفنة الغراء، وأنت وأنت، فقال: «**قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان**» [صحيح الجامع برقم: ٤٤١٨]، إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم؛ حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته، وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكّت ابنه فيقول: أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذابًا. وقال الحسن: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل.

وروي أنّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعث بعض عفاريته وبعث نفرًا ينظرون ما يقول ويخبرونه، فأخبروه بأنه مرَّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يُمْلُون! وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلًا رسلًا. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه، وقال عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأكثر، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كم دون لسانك من حجاب؟**» فقال: شفتاي وأسناني، قال: «**أفما كان لك ما يرد كلامك؟**» [رواه ابن أبي الدنيا مرسلًا ولكن رجاله ثقات ومعناه حسن]، وفي رواية: أنه قال في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ثم قال: ما أوتي رجل شرًا من فضل في لسانه، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليتكلم. وقال يزيد بن أبي حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهَّر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيرًا لها. وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام.

الآفة الثالثة- الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر

الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة**» [الصحيحة برقم: ٨٨٨]، وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث. وقال النبي ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا**» [رواه ابن أبي الدنيا وسنده حسن]، وقال أبو هريرة: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يُلقي بها بالًا، يهوى بها في جهنم، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالًا يرفعه الله بها في أعلى الجنة، وقال ابن مسعود: «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل»، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال سلمان: أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله. وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث. فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بلهو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضًا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

الآفة الرابعة- المراء والجدال:

قال ﷺ: «**من ترك المراء وهو محق بُني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة**» [الصحيحة برقم: ٢٧٣]، وقال أيضًا: «**ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل**» [صحيح الجامع برقم: ٥٦٣٣]، وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسُّنَّة. وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته. وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل. وقال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضًا: المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن، وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته. وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال: حلوة، وقلت: حامضة لسعى بي إلى السلطان. وقال أيضًا: صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء: كفى بك إثمًا أن لا تزال ممار يًا، وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث، لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: مالك لا تترك أخاك عن قلى؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه.

وحدّ المراء هو كل اعتراض عل كلام الغير، بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته

فـإن كان حقًـا فصدق به، وإن كان باطـلًا أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسـكت عنه. [ولكن انصح الكاذب بترك كذبه].

والطعـن في كلام الغـير تارة يكون في لفظه بإظهـار خلل فيه من جهة النحو أو من جهـة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسـوء تقدم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة، وتارة يكون بطغيان اللسـان، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله. [إلّا لمصلحة في الدين مع حسن القصد].

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأمـا في قصده، فمثـل أن يقول: هذا الـكلام حق، ولكن ليس قصـدك منه الحق، وإنـما أنـت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسـألة علمية ربما خص باسـم الجدل وهو أيضًا مذموم بل الواجب السـكوت أو السـؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأمـا المجادلة، فعبـارة عن قصد إفحام الغـير وتعجيزه وتنقيصـه بالقدح في كلام ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهًا عند المجادل، بل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسـه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأمـا الباعـث على هذا فهـو الترفع بإظهـار العلـم والفضل، والتهجـم على الغير بإظهـار نقصـه. وهما شـهوتان باطنتان للنفـس قويتان لهـا. أما إظهار الفضـل: فهو من قبـل تزكية النفس وهـي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعـوى العلو والكبرياء وهي مـن صفـات الربوبية. وأما تنقيـص الآخر فهو من مقتضى طبع السـبعية، فإنه يقتضى أن يمـزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتـان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قوّتهما المراء والجدال. فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد

الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير. ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره -كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب- فإن علاج كل علة بإماطة سببها. وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعًا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

وروي أن أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليَّ منها. وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدًا. ولذلك قال ﷺ: «**من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتًا في أعلى الجنة**» لشدة ذلك على النفس، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد، فإن المراء طبع؛ فإذا ظن أن له عليه ثوابًا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف عن المراء، وإذا رأى مبتدعًا أو عاميًا تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة والمعصية في قلبه بالجدل وتتأكد، فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزًا وقبولًا قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعًا إذ اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها؟

الآفة الخامسة- الخصومة:

وهي أيضًا مذمومة وهي وراء الجدال والمراء؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير. وإظهار مزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضًا. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق. فقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**» [متفقٌ عليه]، وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة: مرّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكر فقال: ما يجلسك ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يدًا وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئًا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال: فقمت لانصرف فقال لي خصمي: مالك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال: فإني لا أطلب منك شيئًا !! هو لك.

فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق لابد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم؛ مثل وكيل القاضي فإنه لا أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو ويتوكل في الخصومة من أي جانب كان، فيخاصم بغير علم. ويتناول كذلك الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في

بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدًا. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلًا، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نُسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه، فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدًا، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنيًا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركًا للأولى ولا يكون آثمًا، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب. فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهَّله أو كذَّبه فيفوت به طيب الكلام. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيًا إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]، وقال ابن عباس أيضًا: لو قال لي فرعون خيرًا لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن في الجنة لغرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام**» [صحيح الجامع برقم:٢١٢٣]، وروى أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّ بخنزير فقال: مر بسلام، فقيل: يا روح الله، أتقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»، وقال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا**

فبكلمة طيبة» [متفق عليه]، وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: البر شيء هين وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك تُرضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلًا، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

الآفة السادسة:

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدّمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]، وقالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام**» [الصحيحة برقم: ٧٩١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أهلك المتنطعون -ثلاث مرات-**» [رواه مسلم]، والتنطع هو: التعمق والاستقصاء. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان. وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد: ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم! إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها**» [رواه ابن خزيمة]، وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة. وهذا أيضًا من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات، إذ قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغرّة في الجنين، فقال بعض قوم الجاني:

كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل؟ فقال: «**أسجعًا كسجع الكهان**»، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بيِّنٌ عليه، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم، ولا يدخل في تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة- الفحش والسب وبذاءة اللسان:

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم. قال ﷺ: «**إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش والتفحش**»، ونهى رسول الله ﷺ عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: «**لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا أن البذاء لؤم**» [رواه ابن أبي الدنيا مرسلًا ورجاله ثقات وعند النسائي بسندٍ صحيح لا تسبوا أمواتًا لتؤذوا أحياءنا]، وقال ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» [رواه الترمذي وصححه. وقال الدارقطني: الموقوف أصح]، وقال ﷺ: «**البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق**» [رواه الترمذي وحسنه]، فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه، ويحتمل أيضًا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حدّ التكلف، وقال إبراهيم بن ميسرة: يقال: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: اللسان البذيء، والخلق الدنيء.

فهذه مذمة الفحش، فأما حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات

صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها، ويدلون عليه بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، وقال ابن عباس: إن الله حيي كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة. وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع، بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول، والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضًا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال: قالت زوجتك كذا بل يقال: قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير. بل يقال: العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان.

قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه: فخرج تحت إبطه خرّاج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول؟ فقلنا: من أين خرج؟ فقال: من باطن اليد، والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب. وقال أعرابي لرسول الله ﷺ: أوصني، فقال: «**عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيَّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبنَّ شيئًا**»، قال: فما سببت شيئًا بعده [الصحيحة: ١١٠٩]، وقال عياض بن حمار: قلت: يا رسول الله، إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل عليَّ من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: «**المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران**» [أخرجه أبو داود وصحح

إسناده الحافظ العراقي]، وقال ﷺ: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**» [متفقٌ عليه]، وقال ﷺ: «**المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**ملعون من سبَّ والديه**» [رواه أحمد]، وفي رواية: «**من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه**» [متفقٌ عليه].

الآفة الثامنة- اللعن:

إما الحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم. قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن ليس بلعان**» [رواه الترمذي وصححه الألباني]، وقال ﷺ: «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم**» [الصحيحة: ٨٩٠]، وقال حذيفة: ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول. وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها، فقال ﷺ: «**خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة**» [رواه مسلم]، قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا لله، وقالت عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن رقيقه فالتفت إليه وقال: «**يا أبا بكر، أصدّيقين ولعانين؟ كلا ورب الكعبة -مرتين أو ثلاثًا-**» [لفظ مسلم «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا»]، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال: لا أعود. قال رسول الله ﷺ: «**إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**» [رواه مسلم]، وقال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ: «**يا عبد الله، لا تسر معنا على بعير ملعون**» [أخرجه ابن أبي الدنيا بسندٍ جيد]، وقال ذلك إنكارًا عليه. واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّوجلّ وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي

أن يتبع فيه لفظ الشرع، فإن في اللعنة خطرًا لأنه حكم على الله عَزَّوَجَلَّ بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطَّلع عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق. وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب:

الأولى- اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية- اللعن بأوصاف أخص منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز. ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع العوام لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير نزاعًا بين الناس وفسادًا.

الثالثة- اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعًا فتجوز لعنته كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعًا. وأما شخص بعينه في زماننا كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلًا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقرًا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونًا؟

فإن قلت: يلعن لكونه كافرًا في الحال كما يقال للمسلم: رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكونه مسلمًا في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد، فاعلم أن معنى قولنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة، فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على

الكفر، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدري، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر، وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ، فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قومًا باللعن فكان يقول في دعائه على قريش: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة**»، وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إنّ من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهي عنه، إذ روى: أنه كان يلعن الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرًا فنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟ [قلتُ: الوارد في سبب نزول الآية أنّ الرسول قال: كيف يهدي الله قومًا.....] وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز، وكان رجل يشرب الخمر فحدّ مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتي به، فقال ﷺ: «**لا تكن عونًا للشيطان على أخيك**»، وفي رواية: «**لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله**» [رواه البخاري]، فنهاه عن ذلك، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز. وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب.

فإن قيل: هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت على وجه القطع فلا يجوز أن يقال: إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضلًا عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق، نعم يجوز أن يقال: قتل ابن ملجم عليًا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما، فإن ذلك ثبت متواترًا. فلا يجوز أن يرمي مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق. قال ﷺ: «**لا يرمي رجل رجلًا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**» [متفقٌ عليه]، قال مسروق: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: ما فعل فلان لعنه الله؟ قلت: توفي. قالت: رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**» [رواه البخاري]، وقال عليه السلام: «**لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء**» [الصحيحة برقم: ٢٣٩٧].

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله؟ أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشيًا قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعًا ولا يجوز أن يلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين، فالاشتغال بذكر الله أولى، فإن لم يكن ففي السكوت سلامة. [قلتُ: في رواية مسروق عن عائشة السابقة دليل على تجويزها للعن الفاسق المعين إذا جهر بفسقه واشتهر به ما لم يكن ميتًا].

قال مكي بن إبراهيم: كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا: يا ابن عون، إنما نذكره لما ارتكب منك، فقال: إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله ولعن الله فلانًا، فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله، أحبّ إليَّ من أن يخرج منها لعن الله فلانًا، وقال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان. وقال بعضهم: لعن المؤمن بعد قتله، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا: لو قلت: إنه مرفوع لم أبال؟ وعن أبي قتادة قال: كان يقال: «من لعن مؤمنًا فهو مثل أن يقتله»، وقد نقل ذلك حديثًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ. [متفقٌ عليه].

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلًا: لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم. وفي الخبر: «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة» [السلسلة الضعيفة: ٤٥٩٣].

الآفة التاسعة- الغناء والشعر:

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، وأما الشعر، فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم. قال رسول الله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا**» [متفقٌ عليه]، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه، فقيل له في ذلك فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر. وسئل بعضهم عن شيء من الشعر قال: أجعل مكان هذا ذكرًا فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة: فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره. قال ﷺ: «**إن من الشعر لحكمة**»، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، لكن قد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار. وأمّا التوسع في المدح، فإنه وإن كان كذبًا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفِّه غير روحه ... لجادَ بها فليتق الله سَائِلُهْ

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخيًا كان كاذبًا، وإن كان سخيًا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته. وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله ﷺ لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه، ولما قسم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره:

وما كان بدر ولا حابس ... يسودان مرداس في مجمعِ

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يُرفعِ

فأمره رسول الله ﷺ فذهب به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضى الناس، فقال له ﷺ: «**أتقول في الشعر؟**» فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيبًا على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بدًا من قول الشعر، فتبسم ﷺ وقال: «**لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين**» [أخرج مسلم أصل القصة دون ذكر الاعتذار].

الآفة العاشرة- المزاح:

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدرًا يسيرًا يستثنى منه. قال ﷺ: «**لا تمار أخاك ولا تمازحه**» [ضعيف الجامع برقم: ٦٢٧٤] فإن قلت: المماراة فيها إيذاء لأنّ فيها تكذيبًا للأخ والصديق أو تجهيلًا له، وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم أنّ المنهي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه. أما المداومة؛ فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح، ولكن المواظبة عليه مذمومة، وكذا الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، كما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا**»، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقًا، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي في النار أبعد من الثريا**» [أورده الألباني في الصحيحة]، وقال عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلا**» [الصحيحة:٢١٧٢٢]، وقال رجل لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك

وارد النـار؟ قـال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منهـا؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل: فما رؤي ضاحكًا حتى مات. وقال يوسـف بن أسـباط: أقام الحسـن ثلاثين سـنة لم يضحك، وقيل: أقام عطاء السـلمى أربعين سـنة لم يضحك. ونظـر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الخائفين؟ وكان عبـد الله بـن أبي يعلى يقول: أتضحك ولعل أكفانك قـد خرجت من عند القصار؟ وقال ابن عباس: من أذنب ذنبًا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي. وقال محمد بن واسع: إذا رأيـت في الجنة رجلًا يبكي ألسـت تعجب من بكائه؟ قيـل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ما يصير هو أعجب منه؟ فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكًا، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ. وإلَّا أدَّى المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مـن مزح اسـتخف بـه. وقال محمد بن المنكـدر: قالت لي أمي، يا بنـي، لا تمازح الصبيان فتهون عندهم، وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنـئ فيجـترئ عليك. وقال عمر بن عبـد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: اتقـوا الله وإياكم والمزاح فإنه يـورث الضغينـة ويجرّ إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسـوا به فإن ثقـل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتدرون لم سُمِّي المزاح مزاحًا؟ قالوا: لا، قـال: لأنـه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنُّهى مقطعة للأصدقاء.

فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسـول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقـول: إن قـدرت على ما قدر عليه رسـول الله ﷺ وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقـول إلا حقًـا ولا تـؤذي قلبًا ولا تفرط فيـه وتقتصر عليه أحيانًا عـلى الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسـان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم

وإلى رقصهم ويتمسك بأنّ رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا، نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا، فقال: «**إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقًا**» [الصحيحة: ١٧٢٦]، وروي أنه كان كثير التبسم، وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: «**لا يدخل الجنة عجوز**» فبكت فقال: «**إنك لست بعجوز يومئذ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾** [الواقعة: ٣٦]» [وقال الترمذي في الشمائل بسندٍ ضعيف]، وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «**ومن هو، أهو الذي بعينه بياض؟**»، فقالت: والله ما بعينه بياض! فقال: «**بلى إن بعينه بياضًا**»، فقالت: لا والله، فقال ﷺ: «**ما من أحد إلا بعينه بياض**» وأراد به البياض المحيط بالحدقة [رواه ابن أبي الدنيا]، وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا سول الله، احملني على بعير فقال: «**بل نحملك على ولد الناقة**» فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني، فقال ﷺ: «**وهل تلد الإبل إلَّا النوق**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، فكان يمزح به، وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول: «**يا أبا عمير ما فعل النغير**» [رواه البخاري]، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور، وقالت عائشة: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني، وقال: «**هذه بتلك**»، وقالت أيضًا رضي الله عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئًا منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها ، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئًا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك [رواه أبو يعلى بسندٍ حسن]، وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه لابن عليّ رضي الله عنهما

فيرى الصبي لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن قد تزوّج وبقل وجهه وما قبلته قط! فقال ﷺ: «**إن من لا يَرْحَم لا يُرْحَم**» [قوله: «من لا يرحم ....» متفقٌ عليه] فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل، وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا: «**أتأكل التمر وأنت رمد؟** فقال: إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فتبسم ﷺ» [ولم أحبه]. قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه. وروى أن خوّات بن جبير الأنصاري كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: «**يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟**» فقال: يفلتن ضفيرًا لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: «**يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟**»، قال: فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرّ منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة وبعدما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يومًا أصلي فجلس إليَّ فطوّلت فقال: «**لا تطوّل فإني أنتظرك**» فلما سلمت قال: «**يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟**» قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّ منه حتى لحقني يومًا وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد فقال: «**يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟**» فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت قال: «**الله أكبر الله أكبر، اللهم اهدِ أبا عبد الله**» قال: فحسن إسلامه، وهداه الله [أخرجه الطبراني في الكبير]، وكان نعيمان الأنصاري رجلًا مزاحًا فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتي به إلى النبي ﷺ فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة: لعنك الله، فقال النبي ﷺ: «**لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله**»، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك وأهديته لك، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أعطه عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه [أخرجه

الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة]، فهذه مطيبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام. والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشرة- السخرية والاستهزاء:

وهذا محرم مهما كان مؤذيًا كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ ﴾ [الحجرات:١١] ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسمَّ ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: حاكيت إنسانًا فقال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله ما أحب أني حاكيت إنسانًا ولي كذا وكذا**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَوَيۡلَتَىٰ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ [الكهف:٤٩]، إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك. وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر. وعن عبد الله بن زمعة أنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال: «**علام يضحك أحدكم مما يفعل**» [متفقٌ عليه]، وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارًا له، وعليه نبه قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ أي لا تستحقره استصغارًا فلعله خير منك.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح -وقد سبق ما يذم منه وما يمدح- وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون. وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرًا أو ناقصًا لعيب من العيوب. فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها.

الآفة الثانية عشر- إفشاء السر:

وهـو منهي عنه لما فيه من الإيـذاء والتهاون بحق المعـارف والأصدقاء. قال النبي ﷺ: «**إذا حـدث الرجـل الحديـث ثم التفت فهـي أمانة**» [السلسـلة الصحيحة برقـم: ١٠٩٠]، وقـال الحسـن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيـك. ويروى أن معاوية رضي الله عنه أسرَّ إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه: يا أبت، إن أمير المؤمنين أسرّ إليَّ حديثًا وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك؟ قال: فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنـه؟ فقـال: لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسـانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاويـة فأخبرتـه فقال: يـا وليد، أعتقك أبوك من رق الخطأ، فإفشـاء الـسر خيانة. وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة.

الآفة الثالثة- الوعد الكاذب:

فإن اللسـان سـبَّاق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسـمح بالوفاء فيصير الوعد خلفًا وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]، قيل: إنه وعد إنسـانًا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسـان بل نسي، فبقى إسماعيل اثنين وعشرين يومًا في انتظاره، ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال: إنه كان خطـب إليّ ابنتـي رجل من قريش وقد كان إليه مني شـبه وعد، فـوالله لا ألقى الله بثلث النفـاق أشـهدكم أني قد زوجته ابنتـي، وقيل لإبراهيم: الرجل يواعـد الرجل الميعاد فلا يجيء، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء، وكان ابن مسعود لا يعد وعدًا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلابد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد على أن لا يفى فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان**» [متفقٌ عليه]، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقًا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**» [متفقٌ عليه]، وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقًا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضًا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورًا من غير ضرورة حاجزة. ولقد كان ﷺ جالسًا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعدًا يا رسول الله، قال: «**صدقت، فاحتكم ما شئت**»، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، قال: «**هي لك**»، وقال: «**احتكمت يسيرًا**»، ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكمًا منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت: حكمي أن تردني شابة وأدخل معك الجنة [أورده الألباني في الصحيحة برقم: ٣١٣ قريبًا منه، ولكن كان سؤالها مرافقة موسى في الجنة، فكأنه أنكر عليه طلب الدنيا دون الآخرة]، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلا مثلًا، فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعي.

الآفة الرابعة عشرة- الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال إسماعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول -ثم بكى- وقال: «**إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما**

في النار» [أورده الألباني في الضعيفة وقال: لكن له شاهد عند مسلم وشاهد آخر متفقٌ عليه]، وقال الحسن: كان يقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بُني عليه النفاق الكذب.، وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «**لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**» [متفقٌ عليه]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن التجار هم الفجار**» فقيل: يا رسول الله، أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «**نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون**» [الصحيحة برقم: ٣٦٦]، وقال ﷺ: «**ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره**» [رواه مسلم]، وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله: رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا، فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل. وثلاثة يشنؤهم الله: التاجر أو البياع الحلاف، والفقير المختال والبخيل المنان**» [الصحيحة برقم: ٣٦٣]، وقال ﷺ: «**ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له**» [صحيح الجامع برقم: ٧١٣٦]، وقال ﷺ: «**رأيت كأن رجلًا جاءني فقال لي: قم فقمت معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة**» [متفقٌ عليه بمعناه]، وقال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**» [رواه مسلم]، وقال عبد الله بن عامر: جاء رسول الله إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبد الله تعالى حتى أعطيك فقال ﷺ: «**وما أردت أن تعطيه؟**» قالت تمرًا، فقال: «**أما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة**» [الصحيحة برقم:

٧٤٨]، وقال ﷺ: «**لو أفاء الله عليَّ نعمًا عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذابًا ولا جبانًا**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ وكان متكئًا: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين**» ثم قعد وقال: «**ألا وقول الزور**» [متفقٌ عليه]، وقال أنس: قال النبي ﷺ: «**تقبلوا إليَّ بست أتقبل لكم بالجنَّة**»، فقالوا: وما هن؟ قال: «**إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفضوا فروجكم وكفوا أيديكم**» [الصحيحة برقم: ١٤٧٠]، وخطب عمر رضي الله عنه يومًا فقال: قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال: «**احسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد**» [رواه الترمذي وصححه]. وقال النبي ﷺ: «**من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان**» [متفقٌ عليه]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان من خلق أشد على رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها [أخرجه أحمد ورجاله ثقات]. وقال موسى عليه السلام: يا رب، أي عبادك خير لك عملًا؟ قال: من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه. وقال لقمان لابنه: يا بني، إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه. وقال عليه السلام في مدح الصدق: «**أربع إذا كن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن خلق وعفة طعمة**» [أخرجه الحاكم وحسنه الألباني].

وأما الآثار: فقد قال عليّ رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما كذبت كذبة منذ شددت عليَّ إزاري. وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسمًا فإذا رأيناكم فأحبكم

إلينا أحسنكم خلقًا، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة. وعن ميمون بن أبي شبيب قال: جلست أكتب كتابًا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت [أتروَّى] فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال الشعبي: ما أدري أيهما أبعد غورًا من النار الكذاب أو البخيل؟ وقال ابن السماك: ما أراني أؤجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه انفه. وقيل لخالد بن صبيح: أيسمى الرجل كاذبًا بكذبة واحدة؟ قال: نعم. وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقًا صدق وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه، وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

بيان ما رخص فيه من الكذب:

اعلم أن الكذب ليس حرامًا لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلًا وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونًا فيه، وربما كان واجبًا.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلًا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارًا فانتهى إليك فقال: أرأيت فلانًا؟ ما كنت قائلًا؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به، وهذا كذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحًا [قلتُ: لا يخلو ذلك من نظر، فإنّ

الكذب مذموم لذاته]، وواجب إن كان المقصود واجبًا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاحذات البين أن استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حرامًا في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الاستثناء ما رُوي عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها [رواه مسلم]، وقالت أيضًا: قال رسول الله ﷺ: «**ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا أو نمى خيرًا**» [متفقٌ عليه]، وقالت أسماء بنت يزيد: قال رسول الله ﷺ: «**كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما**» [رواه الترمذي وحسنه].

ورُوي أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه وكان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله، ثم قال لامرأته: أنشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم: أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدثون إني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال: أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي فإن كانت

إحداكـن لا تحـب أحدنا فلا تحدثـه بذلك، فإن أقل البيوت الـذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب.

وقال ثوبان: الكذب كله إثم إلا ما نفع به أحدكم مسـلمًا أو دفع عنه ضررًا. وقال عـليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا حدثتكـم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلأن أخرّ من السـماء أحبُّ إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة.

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيـح لـه أو لغـيره، أما ماله: فمثـل أن يأخذه ظالم ويسـأله عن ماله فلـه أن ينكره، أو يأخذه سـلطان فيسأله عن فاحشـة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول: ما زنيت وما سرقت. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ارتكب شـيئًا من هذه القاذورات فليستتر بسـتر الله**»، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشـة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلمًا وعرضه بلسانه وإن كان كاذبًا.

وأمـا عرض غيره: فبأن يسـأله عـن سر أخيه فله أن ينكـره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلـح بـين الضرات من نسـائه بأن يظهر لكل واحـد أنها أحب إليـه، أو يعتذر إلى إنسـان وكان لا يطيـب قلبـه إلا بإنكاره ذنب وزيـادة تودد فلا بأس بـه، ولكن الحد فيه أن الكـذب محذور ولو صـدق في هذه المواضع تولد منه محذور، فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخـر ويزن بالميزان القسـط، فإن علم أن المحذور الذي حصل بالصدق أشـد وقعًا في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصـدق، وقد يتقابل الأمـران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميـل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة، فإن شـك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب مـا أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيسـتحب له أن يـترك أغراضه ويهجر الكذب، فأمـا إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسـامحة بحق الغير والإضرار بـه؛ وأكثر الناس إنّما

هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذورًا، حتى أن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام، وقالت أسماء: سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل عليّ شيء فيه؟ فقال ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**» [متفق عليه]، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه، وروايته الحديث الذي لا يتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول: لا أدري، وهذا حرام، وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر. واللازم الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا؟ وذلك غامض جدًا والحزم تركه إلا أن يصير واجبًا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان. وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض، إذ قال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» [رواه مسلم]، وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب؛ ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها. وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلًا. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض:

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب. قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض

ولا التصريح جميعًا، ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض ما رُوي أن مطرفًا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال: ما رفعت جنبي منذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله. وقال إبراهيم: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل: إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، فيكون قوله: «ما» حرف نفى عند المستمع، وعنده على الإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملًا لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رجع قالت له امراته: «ما جئت به مما يأتي به العامل إلى أهله؟ وما كان قد أتاها بشيء، فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أمينًا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبعث عمر معك ضاغطًا؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذًا وقال: بعثت معك ضاغطًا؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأعطاه شيئًا فقال: أرضها به – ومعنى قوله ضاغطًا يعني رقيبًا وأراد به الله تعالى – وكان النخعي لا يقول لابنته: أشتري لك سكرًا بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكرًا؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار. قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد ولا تقولي له: ليس ههنا كيلا يكون كذبًا. وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا. وهذا كله في موضع الحاجة، فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبًا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال: دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فخرجت وعليَّ ثوب، فجعل الناس يقولون: هذا كساكه أمير المؤمنين؟ فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيرًا، فقال لي أبي: يا بني، اتق الكذب وما أشبهه، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرًا لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة عجوز**»، وقوله للأخرى: «**الذي في عين زوجك بياض**»، وللأخرى: «**نحملك على ولد البعير**»، وما أشبهه. وأما الكذب الصريح فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال ﷺ: «**لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه**» [قلت: لا يصح الحديث بهذا اللفظ ولكن ذمّ الكذب في المزاح من أجل إضحاك الناس والتوعد على ذلك بالويل -كما تقدم- يدل على أنه من الكبائر أن يعرِّض في الحديث ليضحك الناس].

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبًا، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب. ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال: كُل الطعام، فيقول: لا أشتهيه؛ وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح. قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس: كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ومعي نسوة قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحًا من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة، قال: فاستحيت الجارية فقلت: لا تردّي يد رسول الله ﷺ خذي منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال: «**ناولي صواحبك**» فقلن: لا نشتهيه، قال: «**لا تجمعن جوعًا وكذبًا**» قال: فقلت: يا رسول الله، إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه: لا أشتهيه، أيعد ذلك كذبًا؟ قال: «**إن الكذب ليكتب كذبًا، حتى تكتب الكذيبة كذيبة**» [السلسلة الضعيفة برقم: ٢٣٩٥]، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب.

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه، فقيل له: لو مسحت عينيك؟ فيقول: وأين قول الطبيب: لا تمس عينيك؟ فأقول: لا أفعل. وهذه مراقبة أهل الورع، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر. وعن خوات التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس الربيع وقال: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت؟ ومن العادة أن يقول: يعلم الله، فيما لا يعلمه. قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن من عظم الذنوب عند الله أن يقول العبد: إن الله يعلم، لما لا يعلم، وربما يكذب في حاكية المنام، والإثم فيه عظيم إذ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن من أعظم الفرية أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه أو يُري عينيه في المنام ما لم ير أو يقول عليّ ما لم أقل**» [رواه البخاري]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدًا**» [رواه البخاري].

الآفة الخامسة عشرة- الغيبة:

والنظر فيها طويل، فلنذكر أولًا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كل مسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**» [رواه مسلم]، والغيبة تتناول العرض وقد جمع رسول الله بينه وبين المال والدم، وقال أبو برزة: قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضًا وكونوا عباد الله إخوانا**» [متفقٌ عليه]، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم**» [رواه أبو داود وحسنه الألباني]، وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن**

بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» [صحيح الجامع برقم: ٧٩٨٤]، وقيل أوحى الله إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرًا عليها فهو أول من يدخل النار، وقال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: «**إنهما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله**» فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال: «**أما أنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين -أو ما لم ييبسا-**» [متفقٌ عليه]. ولما رجم رسول الله ﷺ ماعزًا في الزنا قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «**انهشا منها**» فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: «**ما نلتما من أخيكما أنتن من هذه**» [رواه أبو داود وضعفه الألباني]، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين. وقال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له: كله ميتًا كما أكلته حيًا، فيأكله فينضج ويكلح، وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثًا فترك ذلك، فقالا: لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس، فحاك في أنفسهما ما قالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين [قلتُ: هذا من عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ على سبيل الزجر وإلا فإنه لا ينتقض الوضوء ولا يبطل الصوم بالغيبة رغم كونها من المحرمات]. وعن مجاهد أنه قال في: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الذي يأكل لحوم الناس. وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول. وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الآكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب

صاحبك فاذكر عيوبك، وقال أبو هريرة: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال مالك بن دينار: مرَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ما أشدّ بياض أسنانه! كأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه. وسمع علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رجلًا يغتاب آخر فقال له: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها:

اعلم أن حدَّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب: فبأن تقول أبوه نبطي أو هندي او فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال، أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما الخُلق: فبأن تقول هو سيئ الخلق بخيل متكبر مُراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه. وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارًا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله المتعلق بالدنيا: فكقولك: إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد

على نفسه حقًا أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام نئوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. وأما في ثوبه فكقولك: إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين لأنه ذَمُّ ما ذمه الله تعالى. فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: «**هي في النار**» [رواه الحاكم وابن حبان]. فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ. والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب وأنَّه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ في حد الغيبة.

وكل هذا وإن كان صادقًا فيه فهو مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما رُوي أن النبي ﷺ قال: «**هل تدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بمايكرهه**» قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته**» [رواه مسلم]. وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت: إنها قصيرة فقال ﷺ: «**اعتبتيها**» [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وقال الحسن: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عز وجل؛ فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وذكر ابن سيرين رجلًا فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبرهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان:

اعلم أن الذكر باللسان [أي الغيبة] إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم منه المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجًا أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأةً قال: «**ما يسرني أني حاكيت إنسانًا ولي كذا وكذا**»، وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصًا معينًا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره -كما سيأتي بيانه- وأما قوله: قال قوم كذا: فليس ذلك غيبة، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت. ومن الغيبة أن تقول: بعض من مَرَّ بنا اليوم، أو بعض من رأيناه؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصًا معينًا؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئًا قال: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**»، فكان لا يعين. وقولك: بعض من قدم من السفر، أو بعض من يَدِّعي العلم، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يُفْهِمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان: ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر. فيذكر

نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه، فيكون مغتابًا ومرائيًا ومزكيًا نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكائده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم.

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا! حتى يُصغَى إليه ويُعْلَم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله عَزَّوَجَلَّ بذكره جهلًا منه وغرورًا، وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه، فيكون كاذبًا في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته أو في صلاته، ولو كان يغتم به لاغتم أيضًا بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بُلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد يكون تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجب ما علمت أنه كذلك! ما عرفته إلى الآن إلا بالخير: وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق غيبة، بل الساكت شريك المغتاب.

وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجلين اللذين قال أحدهما: أقعص الرجل كما يقعص الكلب «**انهشا من هذه الجيفة**»، فجمع بينهما، فالمستمع لا يخرج من إثم إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت، أو يشتر بحاجبه وجبينه، فإن ذلك

استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحًا وقال ﷺ: «**من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق**» [السلسلة الضعيفة برقم: ٢٤٠٢]، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقًا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة**» [أورده في صحيح الجامع برقم: ٦٢٦٢ بلفظ «ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»]، وقال أيضًا: «**من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقًا على الله أن يعتقه من النار**» [صحيح الجامع برقم: ٦٢٤٠]، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة:

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببًا: ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية:

فالأول- أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساوئه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إذا لم يكن ثَمَّ دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن في الباطن فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سببًا دائمًا لذكر المساوئ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني- موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارًا للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ.

الثالث- أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يُقَبِّح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقًا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع- أن يُنسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركًا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس- إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يُعظَّم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس- الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلًا إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد وهو عين الغضب والحقد، فإنّ ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق.

السابع- اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يُضحِك على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب.

الثامن- السخرية والاستهزاء استحقارًا له، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضًا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير، ولكن شاب الشيطان بها الشرَّ.

الأول- أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان! فإنه قد يكون به صادقًا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابًا وآثمًا من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل؟

الثاني- الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقًا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابًا فيكون غمه ورحمته خيرًا، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى الشر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث- الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء، فهذه الثلاثة مما يغمض ذكرها على العلماء فضلًا عن العوام، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى، كان عذرًا في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم -كما سيأتي ذكره- روى عن عامر بن واثلة: أن رجلًا مر على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان لرجل منهم -قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ماقال وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله

فقال: قد قلتُ ذلك، فقال ﷺ: «**لم تبغضه**» فقال: أنا جاره، وأنه به خابر. والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة. قال: فاسأله يا رسول الله هلى رآني أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فساله فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهرًا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئًا؟ فسأله عنه فقال: لا، والله ما رأيته يعطي سائلًا ولا مسكينًا قط ولا رأيته ينفق شيئًا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني نقصت منها أو ما كست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا، فقال ﷺ للرجل: «**قم فلعله خير منك**» [رواه أحمد وقال العراقي: إسناده صحيح].

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة:

اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلًا عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عَزَّوَجَلَّ ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب، ورُوي أن رجلًا قال للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكِّمك في حسناتي، ومهما وجد عيبًا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره

عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرًا خلقيًا فالذم له ذم للخالق، فإن من ذَمَّ صنعة فقد ذم صانعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إليَّ فأحسنه، وإذا لم يجد للعبد عيبًا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برئ من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبه غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتَاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، فهذه معالجات جميلة.

أما التفصيل؛ فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب.

أما الغضب، فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه عليَّ بسبب الغيبة؛ إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجزه، وقال ﷺ: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء**» [صحيح الجامع برقم: ٦٥٢٢]، وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق.

وأما الموافقة؛ فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر أمر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضًا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينًا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك في الدنيا وتهلك في الآخرة وتخسر وحسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدًا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان.

وأما عذرك؛ كقولك إن أكلتُ الحرام ففلان يأكله، وإن قبلتُ مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يُقتدَى به كائنًا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسُفِّه عقلك. ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه ودللت مع الجمع لمعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تُردي نفسها من قُلة الجبل فهي أيضًا تردي نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرخت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينًا بما عند المخلوقين وهمًا، ولو حصل من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئًا.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبًا بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسرًا نفسك في الدنيا فصرت أيضًا خاسرًا في الآخرة فتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليهِ حسناتك. فإذا أنت صديقه وعدوّ نفسك إذ لا

تـضره غيبتـك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسـناتك أو تنقل إليك سـيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسـد جهل الحماقة، وربما يكون حسـدك وقدحك سـبب انتشـار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نـشـر فضيلة طويـت أتـاح لها لسـان حسـودِ

وأمـا الاسـتهزاء فمقصودك منـه إخزاء غيرك عنـد الناس بإخزاء نفسـك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتـك وخزيـك يـوم القيامة يـوم تحمل سـيئات من اسـتهزأت به وتسـاق إلى النار لأدهشـك ذلك عن إخـزاء صاحبك! ولو عرفت حالك لكنـت أولى أن تضحك منك، فإنـك سـخرت به عنـد نفر قليل وعرضت نفسـك لأن يأخذ يوم القيامـة بيدك على ملأ من الناس ويسـوقك تحت سيئاته كما يسـاق الحمار إلى النار، مستهزئًا بك وفرحًا بخزيك ومسرورًا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك. وأما الرحمة له على إثمه فهو حسـن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثـر من رحمتك، فيكـون جبرًا لإثم المرحوم فيخـرج عن كونه مرحومًـا، وتنقلب أنت مسـتحقًا لأن تكون مرحومًـا، إذ حبط أجرك ونقصت من حسـناتك، وكذلك الغضب لله تعـالى لا يوجـب الغيبة، وإنما الشـيطان حبـب إليك الغيبة ليحبـط غضبك لله وتصير معرضًا لمقت الله عَزَّوَجَلَّ بالغيبة.

وأمَـا التعجـب إذا اخرجـك إلى الغيبـة فتعجب من نفسـك أنت؟ كيـف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت لا تأمن عقوبة الدنيا! وهو أن يهتك الله سترك كـما هتكـت بالتعجب سـتر أخيك، فإذًا عـلاج جميع ذلـك المعرفة فقـط، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسـانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب:

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضًا معفو عنه، ولكن المنهى عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بإذنك ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦]، فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان ثَمَّ مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم تجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به، حتى إن من اشُتنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يُحدَّ، إذ يقال: يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها، أو حمل عليه قهرًا، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فنقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورًا ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه.

والنجاة من سوء الظن بألا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح. أما في القلب: فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبه، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

وأمّا إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورًا، لأنك لو كذبته لكنت جانيًا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضًا من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو، فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلًا فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوبًا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساوئهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل، فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه، بإيذاء الوعظ، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصحية،

فـإذا أنـت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه.

ومـن ثمرات سـوء الظن التجسـس، فإن القلـب لا يقنع بالظـن ويطلب التحقيق فيشـتغل بالتجسـس وهـو أيضًا منهـي عنه، قـال الله تعـالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات:١٢]، فالغيبة وسـوء الظن والتجسـس منهي عنـه في آية واحدة. ومعنى التجسـس أن لا يترك عبـاد الله تحت سـتر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك السـتر حتى ينكشـف له ما لو كان مستورًا عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلـم أن المرخـص في ذكـر مسـاوئ الغير هو غـرض صحيح في الـشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستة أمور:

الأول- التظلـم، فـإن من ذكـر قاضيًا بالظلـم والخيانـة وأخذ الرشـوة كان مغتابًا عاصيًا إن لم يكن مظلومًا، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلـم إذ لا يمكنه اسـتيفاء حقه إلا به. قـال ﷺ: «**إن لصاحب الحق مقالا**» [متفقٌ عليه]، وقال عليه السلام: «**مطل الغنى ظلم**» [متفقٌ عليه]، وقال عليه السلام: «**لي الواجد يُحل عقوبته وعرضه**» [صحيح الجامع برقم: ٥٤٨٧].

الثانـي- الاسـتعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهـج الصلاح، كما رُوي أنّ عمر رضي الله عنه مر على عثمان - وقيل على طلحة - رضي الله عنه فلم يرد السلام، فذهب إلى أبي بكـر رضي الله عنه فذكـر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلـح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم. وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أنا أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:١-٣] الآية فتاب، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك

فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حرامًا.

الثالث- الاستفتاء كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص؟ والأسلم التعريض بأن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما رُوي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**» [متفقٌ عليه]، فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع- تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه [شُرع] أن تكشف له بدعته وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق، وكذلك من اشترى مملوكًا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك، فإن في سكوتك ضررَ المشتري وفي ذكرك ضرر العبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنًا، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة، فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا تصلح لك، فهو الواجب وفيه الكفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به، إذ قال رسول الله ﷺ: «**أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروا ما فيه حتى يحذره الناس**» [ضعيف الجامع: ١٠٤]، وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه.

الخامس- أن يكون الإنسان معروفًا بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول: روى أبو الزناد عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش، وما يجري

مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورًا به، نعم إن وجد عنه معدلًا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصير، عدولًا عن اسم النقص.

السادس- أن يكون مجاهرًا بالفسق كالمخنث والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف، من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر فإنه لابد من مراعاة حرمته. وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكري له بما فيه غيبة له؟ قال: لا ولا كرامة. وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر. فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنّهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به. فكيف يكرهون ذلك وهو يقصدون إظهاره؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم. وقال عوف: دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال: إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدًا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة:

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ! وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله؟ إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادمًا، فيكون قد قارف معصية أخرى، وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال، وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير. وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح.

وقول القائل: العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به، بل في الحديث الصحيح ما روى أنه ﷺ قال: «**من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، وإنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته**» [رواه البخاري]، فإذًا لابد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائبًا أو ميتًا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات. [قلتُ: اختار شيخ الإسلام الدعاء والاستغفار له دون إبلاغه بالغيبة إذا خاف من حصول مفسدة الضغينة والعداوة وفساد ذات البين].

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟ فأقول: لا، لأنه تبرع والتبرع فضل، وليس بواجب ولكنه مستحسن، وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتوددة حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة. وكان بعض السلف لا يحلل. قال سعيد بن المسيب: لا أحلل من ظلمني. وقال ابن سيرين: إني لم أحرمها عليها فأحللها له إن الله حرّم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدًا.

فإن قلت: فما معنى قول النبي ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس**» [ضعيف الجامع برقم: ٢١٨٥]، فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله، فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه؟ فنقول: معناه أني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير الغيبة حلالًا به ولا تسقط المظلمة عنه، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك، بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل.

openkandil.com

قال الحسن: إذا جثت الأمم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة نودوا: ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا الغافون عن الناس في الدنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فسأل النبي ﷺ جبريل: «**ما هذا العفو؟**» فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك [قال ابن كثير: هذا حديث مرسل وقد روي له شواهد من وجوه آخر]، وروي عن الحسن أن رجلًا قال له: إن فلانًا قد اغتابك فبعث إليه رطبًا على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشر- النميمة:

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١-١٣]، قال عبد الله بن المبارك: الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطًا من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ والزنيم هو الدَّرعي، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قيل: الهمزة: النمام، وقال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، قيل: إنها كانت نمامة حمالة الحديث، وقال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠]، قيل: كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون، وقد قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**» [متفقٌ عليه]، وفي حديث آخر: «**لا يدخل الجنة قتات**» والقتات: هو النمام وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقًا الموطَّئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرءاء العثرات**» [رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني بشواهده]، ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة، وروى كعب الأحبار: أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عَزَّوَجَلَّ مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه: إني

لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نام قد أصر على النميمة، فقال موسى: يا رب من هو؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيننا، قال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا، فتابوا جميعًا فسقوا، ويقال: اتبع رجل حكيمًا سبعمائة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي أتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها؟ وعن الأرض وما أوسع منها؟ وعن الصخر وما أقسى منه؟ وعن النار وما أحر منها؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه؟ وعن البحر وما أغنى منه؟ وعن اليتيم وما أذل منه؟ فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السموات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحر من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

بيان حد النميمة وما يجب في ردها:

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليس النميمة مختصة به. بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبًا ونقصًا في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالًا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصًا وعيبًا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلانًا قال: فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور:

الأول- أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات:٦].

والثاني- أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله. قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧].

الثالث- أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع- أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

الخامس- أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نمامًا ومغتابًا، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت.

وقد رُوي عن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئًا فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم:١١]، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدًا.

وذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات، بغَّضت أخي إليَّ، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

ورُوي أن سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت؟ فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقًا، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

وقال الحسن: من نمَّ إليك نمَّ عليك. وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغَض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الشورى: ٤٢]، والنمام منهم. وقال ﷺ: «**إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره**» [متفقٌ عليه]. والنمام منهم. وقال: «**لا يدخل الجنة قاطع**» [رواه البخاري ومسلم ولكن عند مسلم: قاطع رحم] قيل: أي: «**قاطع بين الناس**»، وهو النمام. وقيل: قاطع الرحم.

ورُوي عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا سعى إليه برجل فقال: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقًا مقتناك، وإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين. وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبد الله بن عامر -وكان أميرًا-: بلغني أن فلانًا أعلم الأمير أني ذكرته بسوء، قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال.

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال: ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم؟ وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به

كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فلو كان صادقًا في قوله لكان لئيمًا في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. والسعاية هي النميمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفًا وفي الأمانة تضييعًا والأعراض قطعًا وانتهاكًا، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسؤول عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإنّ أعظم الناس غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره، وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك، فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا ... فخنت وإما قلت قولًا بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد: إن فلانًا ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. ورفع بعض السعاة إلى الصاحب نبَّه عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكًا في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقَّ يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله واليتيم جبره الله، والمال ثمّره الله، والساعي لعنه الله. وقال لقمان لابنه: يا بني، أوصيك

بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدًا: ابسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل. وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك.

وعلى الجملة؛ فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى. قال حماد بن سلمة: باع رجل عبدًا وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أيامًا ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلًا وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين، فنسأل الله حسن التوفيق.

الآفة السابعة عشر- كلام ذي اللسانين:

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة**» [الصحيحة برقم:٨٩٢]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**» [متفقٌ عليه]، وفي لفظ آخر: «**الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»، وقال أبو هريرة: لا ينبغي لذى الوجهين أن يكون أمينًا عند الله. وقال مالك بن دينار: قرأت في التوارة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين، وقال ابن

مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة؟ قال الذي يجري مع كل ريح، واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها.

وقد رُوي أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر: يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه منهم، فقال: نشدتك الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا ولا أؤمن منها أحدًا بعدك.

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك؟ فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقًا فيه لم يكن منافقًا ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء -كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة- نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة، إذ يصير نمامًا بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام، وإن لم ينقل كلامًا ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين، ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدى عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره، فقال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ [أخرجه البخاري]، وهذا نفاق مهما كان مستغنيًا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق، لأنه هو الذي أحوج نفسه إلى ذلك، فإن كان مستغنيًا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق، لأنه يحوج نفسه إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم، فأما إذا ابتلي به

لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: استأذن رجل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو**»، ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول، فقال: «**يا عائشة، إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره**» [متفقٌ عليه]، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم، فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله -كما ذكرناه في آفة الكذب- بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

الآفة الثامنة عشرة- المدح:

وهو منهي عنه في بعض المواضع، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح، **فالأولى**- أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

والثانية- أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرًا له ولا معتقدًا صدق جميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا.

الثالثة- أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وروى أن رجلًا مدح رجلًا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح**»، ثم قال: «**إن كان أحدكم لابد مادحًا أخاه فليقل: أحسب فلانًا ولا أزكي على الله أحدًا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك**» [متفقٌ عليه]، وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه متق وورع وزاهد وخيِّر وما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج، فهذه أمور مستيقنة، ومن

ذلك قوله: إنه عدل رَضي فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة، سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟ قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال: لا، قال: فأنت جاره في صباحه ومساءه؟ قال: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

الرابعة- أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق**» [السلسلة الضعيفة برقم: ١٣٩٩]، وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا وهما مهلكان. قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جالسًا ومعه الدِّرّة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك أما سمعتها؟ قال: سمعتها فمه، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك.

الثاني- هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورَضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قلّ تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرًا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح**»، وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب

والكبر وهما مهلكان كالذبح؛ لذلك شبهه به، فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبًا إليه، ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال في عمر: «**لو لم أبعث لبعثت يا عمر**» [أورده في السلسلة الصحيحة: ٣٢٧ بلفظ: لو كان نبي بعدي لكان عمر]، وأي ثناء يزيد على هذا؟ ولكنه ﷺ قاله عن صدق وبصيرة، وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرًا وعجبًا وفتورًا، بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر وقد قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» [رواه مسلم]، أي لست أقول هذا تفاخرًا كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم، وذلك لأن افتخاره ﷺ كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم، كما أن المقبول عند الملك قبولًا عظيمًا إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه، وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه، قال ﷺ: «**وجبت**» [متفقٌ عليه]، لما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد: إن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك بمثله، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورتك أَرْبِع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك، فهذه آفات المدح.

بيان ما على الممدوح:

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح. وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح. قال ﷺ: «**احثوا التراب في وجوه المادحين**» [رواه مسلم]، وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح من عرف نفسه، وأُثني على رجل من الصالحين فقال: اللهمَّ إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني وقال آخر لما أُثني عليه: اللهم إن عبدك هذا تقرب إليَّ بمقتك وأنا أشهدك على

مقته. وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أثنى عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرًا مما يظنون، وأثنى رجل على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وجهه - وكان قد بلغه أنه يقع فيه - فقال: أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك.

الآفة التاسعة عشرة- في الغفلة عن دقائق الخطأ:

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله، مثاله: ما قال حذيفة: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت**» [السلسلة الصحيحة برقم: ١٣٧]، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكًا وتسوية وهو على خلاف التعظيم الكامل. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وما شئت، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجعلتني لله عدلًا بل ما شاء الله وحده**» [رواه النسائي في الكبرى ورواه أحمد وحسنه الأرناؤوط]، وخطب رجل عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال: «**قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**» [رواه مسلم]، فكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، وأن يقول: لولا الله ثم فلان؟ ولا يقول: لولا الله وفلان؟ وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار [قلت: مراد الداعي بذلك ألَّا يدخلها أصلًا]، وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال حذيفة: إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وقال إبراهيم: إذا قال الرجل

للرجل يا حمار يا خنزير! قيل له يوم القيامة: حمارًا رأيتني خلقته، خنزيرًا رأيتني خلقته؛ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسُرِقنا الليلة. وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» [متفقٌ عليه]، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها، وقال ﷺ: «**لا تسموا العنب كرمًا إنما الكرم الرجل المسلم**» [متفقٌ عليه]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي** [رواه مسلم]، **ولا يقول: المملوك ربي ولا ربتي، وليقل: سيدي وسيدتي** [رواه أيضًا مسلم] **فكلكم عبيد الله والرب سبحانه وتعالى**» [لم أجده ولكن معناه صحيح]، وقال ﷺ: «**لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم**» [السلسلة الصحيحة: ٣٧٠]، وقال ﷺ: «**من قال: أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقًا فهو كما قال وإن كاذبًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا**» [صحيح الجامع برقم: ٦٤٢١]، فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره.

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ: «**من صمت نجا**»، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين.